سلسلة لقاءات التفسير لشهر رمضان المبارك من عام ١٤٣٦هـ

اللقاء الخامس والعشرون: سورة الفتح (٢٧-٢٩)

بسم الله الرحمن الرحيم

أخواتي الفاضلات، إليكم سلسلة تفاريغ من دروس أستاذتنا الفاضلة أناهيد السميري حفظها الله، وفّق الله بعض الأخوات لتفريغها، ونسأل الله أن ينفع بها، وهي تنزل في مدونة (عِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ)

http://tafaregdroos.blogspot.com/#!/

تنبيهات هامة:

- منهجنا الكتاب والسنة على فهم السلف الصالح.

- هذه التفاريغ من اجتهاد الطالبات ولم تطلع عليه الأستاذة حفظها الله، أما الدروس المعتمدة من الأستاذة فهي موجودة في شبكة مسلمات قسم (شذرات من دروس الأستاذة أناهيد)

http://www.muslimat.net/

- الكمال لله عز وجل، فكتابه هو الكتاب الوحيد الكامل السالم من الخطأ، فما ظهر لكم من صواب فمن الله وحده، وما ظهر لكم فيه من خطأ فمن أنفسنا والشيطان، ونستغفر الله. .

والله الموفق لما يحب ويرضى.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.
الحمد لله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا، ونسأله سبحانه وتعالى أن يجعل القرآن ربيع قلوبنا ونور صدورنا وجلاء أحزاننا وهمومنا اللهم آمين.

نتدارس اليوم آيات من سورة الفتح من آية ٢٧-٢٩، وهذه الآيات العظيمة التي سنسمعها الآن فيها من الثناء على نبينا صلى الله عليه وسلم وفيها من الثناء على الصحابة الكرام ما يسبّب في قلوبنا عقيدتنا التي تميّزنا عن كل أهل الأرض من الإيمان بالنبي صلى الله عليه وسلم إضافة إلى الأنبياء قبله ومن احترام الصحابة رفع منزلتهم كما أخبر بذلك ربنا وكما أمرنا.
نسمع أولا الآيات ثم نبتدئ النقاش..

﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا (٢٧) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا (٢٨) مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾

هذه السورة التي هي سورة الفتح أتت بعد سورة محمد وقبل سورة الحجرات، وهذه السور الثلاث لها ميزة في وصف عقيدتنا في نبينا صلى الله عليه وسلم وفي طريقة التعامل معه، تعامل أهل الإيمان ووصف لتعامله صلى الله عليه وسلم مع أهل الكفر.
وهكذا تكون هذه الثلاثة سور مطلوب منا دراستها دراسة تفصيلية لتكوين مشاعر التوقير للنبي صلى الله عليه وسلم، ولتوصيف كيف يكون حال أهل الإيمان مع نبيهم ومع أصحابه رضي الله عنهم، ومع مجتمع المسلمين بصورة عامة، خصوصًا ونحن اليوم نشتكي من هذه الجروح الثلاثة:

١. قلة تعظيم الله بل ضعف ذلك
٢. وقلة توقير النبي صلى الله عليه وسلم وضعف ذلك
٣. ونشتكي من قلة الرحمة بين المؤمنين وضعف ذلك.

فمن أراد علاج هذه الظواهر الثلاث الخطيرة، فليكن القرآن منهجه، والظاهرة الثانية والثالثة وهي علاقة المؤمنين بالنبي صلى الله عليه وسلم وتوقيرهم له، وعلاقة المؤمنين بعضهم ببعض، هذه الثلاثة سور فيها مِن الشفاء ما فيها لقلب مَن أراد توقير النبي صلى الله عليه وسلم.

وفي سورة محمد كانت الأخبار عن المؤمنين وأحوالهم، وعن المنافقين وأحوالهم، وعن الكافرين وأحوالهم، وكيف يجب أن يكون حال المؤمنين معهم.

أما في سورة الفتح فهي أخبار عن النبي صلى الله عليه وسلم ابتدأت بقوله تعالى: **{إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا}**، وفيها الخبر عن المؤمنين: **{هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا}**، وخُتمت السورة بهذه الآيات التي سمعناها وإن شاء الله تكون واضحة بعد الدراسة وهي قوله تعالى: **{لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا}**.

وهذا يجعلنا نُراجع ما هي هذه الرؤيا المقصودة هنا، وكما هو معلوم في سورة الفتح كان الكلام حول قصة الحديبية وكيف أُعْتبرت فتحًا، وفيها أنّ النبي صلى الله عليه وسلم خرج إلى الحديبية في رمضان وكانت هذه الحادثة، وقيل أنها في شوال.

على كل حال المقصود أن هذه الرؤيا متصلة بقصة الحديبية، لكن لماذا بدأ بقوله: **{لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ}؟**

الذي يظهر مِن القصة أنّ النبي صلى الله عليه وسلم رأى رؤيا وعرضها على القوم، رأى رؤيا قبل خروجه إلى الحديبية أو وهو في الحديبية كأنه وأصحابه قد دخلوا مكة آمنين وحلقوا رؤوسهم وقصروا، وكانت الرؤيا مجملة ليست فيها وقوع حج وعمرة وإن كان الحلق والتقصير يشير إلى ذلك، لما قصّ النبي صلى الله عليه وسلم هذه الرؤيا على أصحابه استبشروا بها وعبّروها أنهم سيدخلون مكة بعمرتهم التي من أجلها خرجوا من المدينة.

لما جرى الصلح بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين قريش على أن يعودوا هذه السنة، وبدؤوا يعودون إلى المدينة، أثار بعض المنافقين ذِكْر الرؤيا، فقالوا فأين الرؤيا! كأنهم يقولوا ما دخلنا المسجد الحرام ولا حلقنا ولا قصرنا!

فكان جواب النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال أخبرتكم أنه الآن؟! قالوا: لا، قال فإنكم ستأتونه وتطوفون به.

المقصود أنّ النبي صلى الله عليه وسلم نبّههم أنّ الرؤيا لم تحدد زمنًا، ومن تأولها أنها هذه العام هو تأولها لكن النبي صلى الله عليه وسلم ما أخبرهم بغير الحق.

والحقيقة هذه المسألة تحتاج إلى نقاش من جهتين:

الجهة الأولى: لماذا يرى النبي في هذا الوقت الرؤيا ثم لا تكون في هذا الزمن؟! هذا الأمر الأول.

والله أعلم أنهم لما يقبلوا على مكة ويكون القوم كثير ممن كان مقبل على مكة في هذه العمرة كان ممن خرج منها، يعني من أهلها الذين هاجروا، وخرجوا ضعفاء وأقبلوا على القوم الذين اضطهدوهم، فالله عز وجل أرى رسوله هذه الرؤيا في ذاك الوقت والله أعلم لتقوى قلوب المؤمنين، ويحصل الجراءة على المشركين في ديارهم، فكأنه تسلم قلوبهم من الخوف، ولذا لما نقرأ في أحداث قصة الحديبية نرى أن الصحابة كان فيهم من قوة النفس ما فيهم، وهذا والله أعلم من آثار رؤية النبي صلى الله عليه وسلم.

وهذه القوة يهبها الله عز وجل للمؤمنين كيف يشاء بأسبابٍ لا تُعلم، إنما تأتي أرزاق تجعل الإنسان على حالة نفسية تعالج داءً فيه، فهكذا لما نسمع في أول سورة الروم كيف أنه يومئذ يفرح المؤمنين بنصر الله، رغم أن النصر لم يكن للمؤمنين كان للروم لكن الله عزّ وجلّ عليم بأحوال الخلق يدخل في نفسياتهم من الأخبار ما تجعل نفسياتهم على وضع يعينهم على القيام بأعمال معينة.

هذا من جهة كون أنه يرى صلى الله عليه وسلم الرؤيا في ذاك الوقت.

ننظر أيضا من جهة أخرى يرى النبي صلى الله عليه وسلم الرؤيا ولا تتحقق فيكون هناك مجال للمنافقين والمؤمنين حريصين على أن لا يجعلوا لأهل النفاق عليهم سبيلًا، لكن يرى النبي صلى الله عليه وسلم الرؤيا ويجد أهل النفاق سبيل، فلِمَ يحصل للمؤمنين دائمًا هذا الأمر! يحصل مواقف وأحداث يجد أهل النفاق فيها فرصتهم كما مرّ معنا في حادثة الإفك، إنّ هذا من فضل الله على أهل الإيمان، **{لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ}**[1] أبدًا فإن ما يميز أهل الإيمان عن أهل النفاق أن تأتي هذه المواقف فيكون أهل الإيمان ثقة ويقين، ويكون أهل النفاق والشك في تردد من ذلك.

فأتى قوله تعالى: **{لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا}** ورؤيا الأنبياء حقّ، وحي، فما رآه النبي صلى الله عليه وسلم عبارة عن خبر وسيكون، وفي هذا تطمين له صلى الله عليه وسلم بأنه سيكون ما أُخبر به لا محالة، والله عزّ وجلّ مِن أسمائه المؤمن، ومِن صفاته الصادق، ويكون معنى الكلام: صدق الله رسوله في الرؤيا، وستكون كما أخبر الله.

بالحق: بمعنى أن هذه رؤيا صادقة محكمة لها غرض صحيح وفيه الحكمة.

يقول الشيخ السعدي في تأويل قوله تعالى: **{لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ}** "وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى في المدينة رؤيا أخبر بها أصحابه، أنهم سيدخلون مكة ويطوفون بالبيت، فلما جرى يوم الحديبية ما جرى، ورجعوا من غير دخول لمكة، كثر في ذلك الكلام منهم" والذي ألقى هذا الكلام المنافقين.

"حتى أنهم قالوا في ذلك للرسول صلى الله عليه وسلم: ألم تخبرنا أنا سنأتي البيت ونطوف به؟ فقال: ((**أخبرتكم أنه العام؟**))" يسألهم هل أخبرتكم أننا سنطوف هذا العام.

"قالوا: لا قال: ((**فإنكم ستأتونه وتطوفون به**))". والحديث في البخاري وفي الإمام أحمد.

"قال الله هنا: **{لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ}** أي: لا بد من وقوعها وصدقها، ولا يقدح في ذلك تأخر تأويلها".

إذن لما تحصل مثل هذه المواقف ويثير المنافقين الأمور على وعود الله ويقولون أين ما وعدنا الله؟ يقول المؤمنين سيأتي وعد الله فالله المؤمن الصادق الذي إذا وعد عباده لا يخلف وعده وإن تأخر فلابد أن يحصل، وفي تأخّره حكمة عظيمة، وفهمنا هنا أن رؤية الأنبياء حقّ، وهذه الرؤيا هي دخول المسجد الحرام إن شاء الله، والمقصود هنا ليس التعليق إنما التحقيق.

[1] النور: ١١

(وإن شاء الله) معناها في الوقت الذي يختاره الله، إذن الموعود به صادق يدخلون مكة بالعمرة، ويدخلون آمنين، وقد حصل هذا، فإنهم من السنة القادمة في عمرة القضية التي قضوا فيها عمرتهم الأولى دخلوا المسجد الحرام آمنين وحلق بعضهم وقصر بعض غير خائفين لأنه كان بينهم وبين المشركين عهد وهذا كان أقرب دخول لهذا الوعد، وأيضا هذا الموعود صادق بدخولهم المسجد الحرام عام حجة الوداع وعدم الخوف فيه أظهر، لكن لا يدخل في ذلك والله أعلم دخولهم يوم الفتح لأنهم لم يكونوا فيه محرمين.

فالمقصود أنّ أقرب موعود كان في عمرة القضية –التي قضوا فيها عمرتهم الأولى وهي في السنة السابعة– دخلوا آمنين حلق بعضهم وقصر بعضهم، وأيضًا في عام حجة الوداع كان هذا أظهر.

محلقين رؤوسكم، آمنين، كل هذه الصفات قد وقعت كما أخبر سبحانه وتعالى، وكل هذا دلالة على التمكين من إتمام الحج والعمرة، ودلالة على أن الأمر سيستمر، وأن هؤلاء محلقين وهؤلاء مقصرين لا يعجلهم الخوف لا عن الحلق ولا عن التقصير، لا تخافون.

إذن عُلم من ذلك أنهم سيدخلون وهم في أحسن حال، ومعهم من القوة ومعهم من الاستعداد ما معهم.

"**{لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ}** أي: في هذه الحال المقتضية لتعظيم هذا البيت الحرام، وأدائكم للنسك، وتكميله بالحلق والتقصير" لا شيء يفزعكم ويخوفكم ويعجلكم.

"وتكميله بالحلق والتقصير وعدم الخوف، فليس هناك شيء يفزعكم ويخوفكم ويعجلكم، **{فَعَلِمَ}** من المصلحة والمنافع، فالله عز وجل هو العليم يعلم ما في قلوبهم ويعلم أيضا المصالح، **{مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ}**، الدخول بتلك الصفة **{فَتْحًا قَرِيبًا}**".

ومعنى ذلك أن هذا الفتح أوله هو فتح خيبر الذي وقع قبل عمرة القضية، وهذا الفتح هو القريب من وقت الصلح، يعني بدأ يحصل قوة للمسلمين، خرجوا من مكة ردوهم أهل مكة، فتح الله عزّ وجلّ على رسوله خيبر، بدأت تظهر قوة النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه، ثم عادوا ودخلوا مكة، وهذا والله أعلم الفتح القريب من عمرة القضية.

قال: "ولما كانت هذه الواقعة مما تشوشت بها قلوب بعض المؤمنين، وخفيت عليهم حكمتها، فبين تعالى حكمتها ومنفعتها، وهكذا سائر أحكامه الشرعية، فإنها كلها، هدى ورحمة".

إذن عَلِم الله ما لم تعلموا وأدخلكم وأنتم في حال من القوة، فلا تعترضوا على أقداره وأفعاله، بل له الحكمة البالغة سبحانه وتعالى، ثم زاد الأمر تحقيقًا لصدق الرؤيا وأنّ ما يقوله النبي صلى الله عليه وسلم ليس من عنده وبأنّ عليكم الثقة به فقال: **{هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ}** فالذي أرسل رسوله بهذا الدين ما كان ليريه رؤيا إلا صادقة.

{لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ}، **{هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ}** وانظروا هنا الضمير وهنا الضمير، وهذا سيفيدنا في الآية التي بعدها: **{لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ}** ثم أتت الآية الثانية: **{هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ}** كان الضمير في الحالتين ثم تأتي الآية **{مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ}**.

على كل حال الرسول صدقه الله في الرؤيا، فهو الذي أرسله ولا يمكن يجعله في موقف يظهر فيه خلاف صدقه، لا يمكن فهو الصادق الأمين، الصادق على الوحي، الصادق مع الخلق، فلابد أن تصدقوه، وكلهم يعلمون أن رؤيا الرسول صلى الله عليه وسلم وحي من الله، وفي حديث بدء الوحي معلوم أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قبل النبوة كان بدأ إرهاصات النبوة بالرؤيا يراها فتأتي كفلق الصبح، فكيف بعد النبوة والرسالة؟!

فالله عزّ وجلّ ينبّه المؤمنين ويذكّرهم بهذه الحقيقة العظيمة كأنّه يقال لا يليق بمن آمن بالرسول أن يشكّ في خبره، فإنّ الذي أوحى إليه هو الذي أراه الرؤيا، فلا يمكن أن يريه رؤيا غير صادقة، وكأنّ في هذا تذكير ولوم للمؤمنين الذين غفلوا عن هذا واتبعوا كلام المنافقين الذين أدخلوا التردّد في قلوب المؤمنين.

فإذن الآيتين أتت لتأكيد هذا المعنى أن الله صدق رسوله في الرؤيا، فهو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق.

قال الشيخ: "أخبر بحكم عام، فقال: **{هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى}** الذي هو العلم النافع، الذي يهدي من الضلالة، ويبين طرق الخير والشر.

{وَدِينِ الْحَقِّ} أي: الدين الموصوف بالحق، وهو العدل والإحسان والرحمة.

وهو كل عمل صالح مزك للقلوب، مطهر للنفوس، مرب للأخلاق، معل للأقدار".

وهذه صفات جميلة وصف بها الدين، فإن الله عز وجل ما أنزل على رسوله إلا ما به يهتدي الخلق ويصلون إلى الحق، وهذا سيشمل الأعمال التي تزكّي القلوب وتطهرها وتربيها وتعلي قدرها، فالحمد لله الذي أرسل رسوله، والحمد لله الذي علمنا شرعه، والحمد لله الذي رفعنا بذلك، فإنّ من نظر إلى الخلق الذي لا يتبعون سنة النبي صلى الله عليه وسلم سواء من تقدم بين يدي الرسول بالبدعة أو من كفر بالرسول صلى الله عليه وسلم فإنّه لا يرى إلا الرذائل في مقابل أن أهل الإيمان زاكية نفوسهم وأعمالهم، وهذا يشمل كل ما أتى به النبي صلى الله عليه وسلم من أصول الدين ومن الاعتقاد ومن فضائل الأخلاق التي تزكو بها النفوس ومن شرائع الإسلام وفروعه، فقد أتى في هذا كله بالهدى ودين الحق، لأجل أي شيء؟

{لِيُظْهِرَهُ} أي أرسله بذلك ليظهر هذا الدين على جميع الأديان الإلهية السالفة، أرسل ليظهر على الدين كله، وهنا الإظهار من ظهر يعني بدى، والمقصود علوّ مكانته وشرفه على الأديان كلها.

"**{لِيُظْهِرَهُ}** بما بعثه الله به **{عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ}** بالحجة والبرهان، ويكون داعيًا لإخضاعهم بالسيف والسنان".

إذن هو من جهة المحاجة ظاهر على الدين كله، ومن جهة الإخضاع بالسيف والسنان فالله ناصره، وهذه الحقائق كانت موجودة في سورة محمد **{إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ}**[٢].

على كل حال **{لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا}** فهو الذي أرسل رسوله بالهدى، ففي الآية الثانية تصديق للأمر الأول كأنه يقال **{وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا}**، ألا يكفيكم أن الله أرسله لتكونوا على يقين من أنّ رؤياه حقّ! ثم أتت هذه الآية التي فيها خبر عن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه.

---

[٢] محمد: ٧

فلما بيّن الله صِدْق الرسول صلى الله عليه وسلم في رؤياه ولما وصلت الطمأنينة في نفوس المؤمنين، أشار سبحانه وتعالى لفضل النبي صلى الله عليه وسلم فأثنى على النبي صلى الله عليه وسلم وأثنى على المؤمنين معه، فقال سبحانه وتعالى: **{مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ}** وهنا معنى قد تكلم فيه بعض أهل العلم فقالوا أن الله لما قال في الآية السابقة **{لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ}** وقال: **{هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ}** كأنه قيل مَن هذا الرسول الذي صُدِّق ومن هذا الرسول الذي أُرسل؟ فمن هو الذي أُثني عليه؟!

فيقال له **{مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ}**، أي هو محمد رسول الله، ففي ذلك رفعة المنزلة والثناء والعناية والاهتمام لما له صلى الله عليه وسلم من مكانة، وكأنّ في ذلك إبطال لجحود المشركين رسالة الرسول، كما هو معلوم في قصة الحديبية لما كتب الكاتب في صحيفة الصلح: هذا ما قضى عليه محمد رسول الله، فردّوا عليه قالوا: لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك من البيت! فالله عز وجل رد عليهم فقال: **{مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ}**.

وهذا تشريف ورفعة وتوقير للنبي صلى الله عليه وسلم.

{وَالَّذِينَ مَعَهُ}: وهذا ثناء على أصحاب الرسول، وهذه المعية التي فيها المصاحبة الكاملة في الطاعة والتأييد، ونرجو أن يكون معنى هذه الآية الصحابة كلهم ومن سار على سيرهم، فالذين معه مصاحبين بأبدانهم والذين معه متابعين له ثابتين على خطاه، معه صلى الله عليه وسلم يسيرون على الدين ويؤيدون سنة رسول رب العالمين، وعلى كل حال يدخل في ذلك بالأولية الصحابة، ويدخل بالأولية أصحاب هذا الصلح صلح الحديبية، وهم الذين بايعوا النبي صلى الله عليه وسلم في ذلك الصلح كما هو معلوم في القصة.

الآن أتت أوصافهم لكن العجيب كما هو متبيّن في الآية أنّ هذه الأوصاف التي ذُكرت لهم ذُكرت في التوراة والإنجيل، فمعنى ذلك أنّ هذا النبي الكريم هو وأصحابه قد أتى ذكرهم في الكتب السابقة، فبُشّروا أهل الكتب السابقة بالنبي صلى الله عليه وسلم وبُشّروا أيضًا بالأصحاب.

فأتت علامة النبي صلى الله عليه وسلم وأتت علامة الأصحاب، وكانت أول علامة مشتركة بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين هؤلاء الأصحاب أنهم أشداء على الكفار، وأشداء هذا جمع لشديد، ففيه صلابة في المعاملة وقسوة، ولذلك قيل عن ملائكة النار: **{عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ}**[٣].

والشدة للكفار يُقصد بها أثناء قتالهم، كما كان واضح في سورة محمد لأنّ الله عز وجل نهى رسوله ونهى الصحابة عن أن يهنوا في سورة محمد: **{فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ}**[٤]، فأتى وصفهم هنا أنهم أشداء في قتال الأعداء وإظهار العداوة لهم، وهم بذلك يغضبون لله ويكرهون أعداء الله وينصرون دين الله، وأصحاب النبي الكريم أقوى المؤمنين إيمانًا وأكثرهم علمًا وأبرّهم قلوبًا، وهم الذين استقاموا على الطريق فبلغوا، فلما نرى حالهم أنهم أشداء على الكفار

---

[٣] التحريم: ٦
[٤] محمد: ٣٥

نعلم أن هذا المطلوب، فمن أراد السير على سير النبي صلى الله عليه وسلم فليكن في قلبه تلك الكراهية لأهل الكفر خاصة صدوا عن سبيل الله **{الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ}**[٥].

ولما نرى صحابة النبي صلى الله عليه وسلم في موقف الحديبية نرى هذا الوصف العظيم لهم، فأولًا كانوا يكرهون الصلح مع الكفار ويريدون قتالهم، وأشدّهم في ذاك اليوم على الكفار هو عمر ابن الخطاب رضي الله عنه، وأفهمهم للمصلحة التي توخّاها النبي صلى الله عليه وسلم هو أبو بكر رضي الله عنه.

وفي هذا نُذكّر نفسنا بقول سهل ابن حنيف يوم صفين واصفًا حالهم يوم الحديبية، كان يقول: يا أيها الناس اتهموا الرأي فلقد رأيتنا يوم الجندل –يقصد الحديبية– ولو نستطيع أن نردّ على رسول الله صلى الله عليه وسلم فِعْله لرددناه!

فالمقصود أنهم أشداء على الكفار يعني كما يقول الشيخ السعدي: "جادون ومجتهدون في عداوتهم وساعون في ذلك في ذلك بغاية جهدهم، فلم يروا منهم إلا الغلظة والشدة، فلذلك ذل أعداؤهم لهم، وانكسروا، وقهرهم المسلمون"

إذن أول الأمر يكون في قلوب المؤمنين كراهية للمشركين، ثم يتبع كراهية المشركين القوة تجاههم، خصوصًا أهل القتال والعداوة والصدّ، وقد اقتبس المؤمنين هذه الشدة على الكفار من شدة النبي صلى الله عليه وسلم في إقامة الدين، هذا لو رينا شدتهم.

ثم نرى أنهم مع شدتهم على الكفار لكنهم **{رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ}**، فهذا من رسوخ أخوة الإيمان، وقد بلغت أخبار أخوّتهم وتراحمهم الآفاق، وفي مواضع كثيرة في كتاب الله وكلام النبي صلى الله عليه وسلم كان واضح هذه الصفة.

قال: "**{رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ}** أي: متحابون متراحمون متعاطفون، كالجسد الواحد، يحب أحدهم لأخيه ما يحب لنفسه".

والحقيقة في هذا الأمر نحتاج أن نتأمّل حالتهم جيدًا، فهذه خُلّتين متضادة: شدة ورحمة، فكيف تجتمع في قلب واحد؟! لكن هذا يدلّ على أنّهم لا يتعاملون مع المواقف بمجرد طبيعتهم أو جبلتهم، المقصود أنهم يصرفون المشاعر تبعًا لعقيدتهم فانظر إلى ضبط أنفسهم يتصرفون في أخلاقهم وأعمالهم تصرف الرُّشْد، هذا عقل رُشد، بحيث أنّ الرجل منهم لا تغلبه نفسه على شيء دون شيء، يعني لا يكون فقط شديد ولا فقط رحيم!

ولذلك كثير ممن يدعوا إلى السلام لا يدري هو ماذا يقول، في كثير من المواقف لا يمكن أن يكون فيها دعوة للسلام، وكيف يدعى للسلام مغصوب الحق! وكيف يُعتبر طلب الحق نوع من الإرهاب!

فأحيانًا كثيرة تختلط على الناس المفاهيم بسبب أن مشاعرهم ليست تبعًا لعقيدتهم، إنما يرى شيء فيستحسنه فيدعو إليه، ومن ذلك هذه الكذبات التي تنتشر بين الناس من القول بالدعوة إلى السلام أو غيرها من الدعوات التي لا يمكن أن تكون حقًا موجودة.

لابد من أن يكون لنا حال مع المعتدي، لنا حال مع من يكره دين الله، لنا حال مع من يصدّ عن دين الله، ولنا حال مع المؤمنين الأتقياء، لا يمكن أن يكونوا سواء.

---

[٥] محمد: ١

ملخص هذا الكلام: أن المشاعر والأحاسيس والمحبة والبغض أدوات وهبها الله للإنسان من أجل أن يعبده بها، فلا تغلبنا نفسنا على شيء دون شيء! ولا نندفع إلى الأعمال بمجرد جبلّتنا أو بمجرد رؤيتنا، والله في سورة المائدة قال: **{فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ}**[٦]، فهؤلاء الرحماء بينهم، ولاحظوا (بينهم) كأنّ هذه الرحمة مبثوثة بينهم، والنبي صلى الله عليه وسلم قال: **((مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ، وَتَرَاحُمِهِمْ، وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى))**[٧]

يقول الشيخ: "هذه معاملتهم مع الخلق، وأما معاملتهم مع الخالق فإنك **{تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا}**"

وصفهم إذا رآهم رائي وصفهم أنهم ركع سجد، قال:

"أي: وصفهم كثرة الصلاة، التي أجل أركانها الركوع والسجود" لاحظ أنه أتت بصيغة المضارع للدلالة على تكرار ذلك، يعني متى رأيتهم رأيت فيهم الراكع الساجد.

وهذا دليل على إقبالهم على الأعمال التي تزكي أنفسهم، فإنّ مَن صلّى وركع وسجد وعظّم الله، لابد أن يكون ذليلًا لله، يأتمر بأمر الله.

ففي هذا إشارة إلى أنّهم عباد يرغبون في رضا الله، وهذا سيتبيّن في آخر الوصف.

"**{يَبْتَغُونَ}** بتلك العبادة **{فَضْلا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا}** فلا تظن فيهم إلا أنهم مخلصين، أي: هذا مقصودهم بلوغ رضا ربهم، والوصول إلى ثوابه" وليس لهم مقصود غير ذلك، وهؤلاء الذين وصفهم الله هذا الوصف قال النبي صلى الله عليه وسلم فيهم: **((إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ الشِّرْكُ الْأَصْغَرُ))**[٨].

{سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ} والسيمة بمعنى العلامة، وقيل أن هذه السمة إما تكون محسوسة للسجود أو أثر نفسي للسجود، وقيل أنه ممكن أن تظهر يوم القيامة على وجوههم.

وقد أورد مالك أنّ النبي صلى الله عليه وسلم كما الخبر عن ليلة القدر صبيحة إحدى وعشرين من رمضان كان يسجد في أثر الطين والماء[٩]، فمعناه في سجودهم يلقون الحجارة ويلقون الطين والماء، فهذا تكراره لابد أن يُحدث شيء في جبهة الساجد، وهنا يحذر الإنسان من الحرص على هذه الأمور خوفًا من الرياء، هذا في قول من قال أن السيمة أثر في الوجه حسي.

وهناك من قال هو نور يكون يوم القيامة فيكونون يوم القيامة وجوههم كالقمر ليلة البدر، يجعلها الله كرامة لهم.

وقيل أنّ نفوسهم سامية كأنّ عليها علامة الإيمان.

والحقيقة أن هذه المعاني كلها يمكن أن تجتمع ولا ممانعة بأن يُرى على الوجه الأثر، ويكون في الروح السمو، ويوم القيامة تكون هذه الآثار.

---

[٦] المائدة: ٥٤

[٧] رواه مسلم في صحيحه.

[٨] روه أحمد في مسنده، حديث حسن.

[٩] فَقَالَ أَبُو سَعِيدٍ: فَأَبْصَرَتْ عَيْنَايَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعَلَى جَبْهَتِهِ، وَأَنْفِهِ أَثَرُ الْمَاءِ وَالطِّينِ مِنْ صَبِيحَةِ إِحْدَى وَعِشْرِينَ. صححه الألباني.

قال: "**{سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ}** أي: قد أثرت العبادة -من كثرتها وحسنها- في وجوههم، حتى استنارت، لما استنارت بالصلاة بواطنهم، استنارت بالجلال ظواهرهم".

كأن الشيخ يرى المعنى الثاني وهي أنّ نفوسهم هي التي تظهر عليها سيما السجود.

"**{ذَلِكَ}** المذكور **{مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ}** أي: هذا وصفهم الذي وصفهم الله به، مذكور بالتوراة هكذا".

وهكذا نفهم أن هذه الصورة قد بُشّر بها أهل الكتاب اليهود مع التبشير بصفة النبي صلى الله عليه وسلم.

نرى الآن مثلهم في الإنجيل..

"وأما مثلهم في الإنجيل، فإنهم موصوفون بوصف آخر، وأنهم في كمالهم وتعاونهم **{كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ}** أي: أخرج فراخه، فوازرته فراخه في الشباب والاستواء".

هناك في علاقتهم بربهم وعلاقتهم ببعض، وهنا صورة أخرى من علاقتهم وهو التعاون.

هذا مثلهم في الإنجيل: كزرع، كونه زرع إشارة إلى أن المؤمنين يكون لهم أصل ثم يخرج منهم هذا الذي سنسمع وصفه.

{كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ} فالأصل أن هناك نبات نبت ثم تفرع الفراخ من الحبة، والشطأ فراخ الزرع وفروع الحبة، الحبة لما تكون في الأرض تُخرج ساقًا قوية وتُخرج فروع، فتحصل المؤازرة، يعني يشدّ بعضها بعض.

"فوازرته فراخه في الشباب والاستواء. **{فَاسْتَغْلَظَ}** ذلك الزرع أي: قوي وغلظ **{فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ}** جمع ساق، **{يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ}** من كماله واستوائه، وحسنه واعتداله"

إذن ساق الزرع والشجر هو الأصل الذي تخرج منه السنابل والأغصان، كأن الصورة فيها تمثيل لحال بدء المسلمين ونمائهم حتى كثروا، وكأنّ دين الإسلام كان ضعيفًا مثل الحبة، وقوي يومًا بيوم مثل الفراخ التي خرجت من الحبة، فآزر بعضه بعض، والإسلام اجتمع أهله بعضهم مع بعض حتى استحكم أمْره وتغلّب على أعدائه.

فالنبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنون هؤلاء علاقتهم ببعض كعلاقة الحبة المزروعة بأصلها وبفروعها، فالمؤمنون الأوائل كأنهم حبات الزرع التي تُبذر في الأرض مثل أبي بكر وخديجة وعليّ وبلال وعمّار رضي الله عنهم جميعًا، والشطأ كأنهم من أيّدوا المسلمين بعد ذلك وانضمّوا إليهم، ثم ينضمّ أكثر وأكثر فيقوى الإسلام أكثر كما أنّ الشطأ يقوّي الزرع.

قال: "كذلك الصحابة رضي الله عنهم، هم كالزرع في نفعهم للخلق واحتياج الناس إليهم، فقوة إيمانهم وأعمالهم بمنزلة قوة عروق الزرع وسوقه، وكون الصغير والمتأخر إسلامه، قد لحق الكبير السابق ووازره وعاونه على ما هو عليه، من إقامة دين الله والدعوة إليه، كالزرع الذي أخرج شطأه، فآزره فاستغلظ".

ملخّص التشبيه:

يشبّه حال بدء المسلمين ثم كثرتهم حتى بلغوا التغلّب على عدوهم، يشبه الزرع، ونتصور أنّ محمدًا صلى الله عليه وسلم النبي الكريم هو الزارع، والمؤمنون الأوائل هم حبات الزرع، والشطأ الذي يكون متفرّع عنه ويقوّي الزرع الأول هم من انضمّ للإسلام بعد ذلك، يقوى يقوى الزرع بهذه الصورة حتى يُعجب الزُّرّاع.

يعجبهم فيه النماء والترقي في القوة والزيادة، فهؤلاء الصحابة الكرام من تعاونهم على الخير يشبهون هذا الزرع، والنتيجة أنّ الكفّار يغتاظون منه، يعني الزراع يُعجبون به والكفار يغتاظون منه، فلو قُدّر أنّ النبي صلى الله عليه وسلم هو الزارع يعجبه ويكون سبب لسعادته، والكفار يصبح في قلوبهم غيظ.

ولذلك فيما يُروى عن مالك ابن أنس أنّ رجلًا كان متغيّظًا على أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وتنقص أصحاب الرسول فقرأ مالك هذه الآية **{مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ..}** حتى بلغ قوله **{لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ}** فقال مالك: من أصبح من الناس في قلبه غيظ على أحد من الصحابة فقد أصابته هذه الآية!

المغتاظ من الصحابة أصابته هذه الآية يعني يغيظ بهم الكفار، وهذا رأي الإمام مالك في تكفير من سبّ الصحابة والأمر فيه تفصيل.

"ولهذا قال: **{لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ}** حين يرون اجتماعهم وشدتهم على دينهم، وحين يتصادمون هم وهم في معارك النزال، ومعامع القتال.

{وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا} فالصحابة رضي الله عنهم، الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح، قد جمع الله لهم بين المغفرة، التي من لوازمها وقاية شرور الدنيا والآخرة، والأجر العظيم في الدنيا والآخرة".

وهذه بُشرى لهم في كونهم قد امتثلوا أمْر الله، فما كان لهم من الإيمان والعمل الصالح كان مقابله المغفرة والأجر العظيم، ومَن غفر الله عز وجل له، طابت دنياه وآخرته، ومن ضمن الله له الأجر العظيم، فقد أوتي الخير كلّه.

وهم يستحقّون رضي الله عنهم ذلك لإقبالهم على دين الله واتصافهم بهذه الصفات التي لها أثر عظيم في نشر الدين وفي نصرة سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم. والحمد لله ربّ العالمين.

سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا انت أستغفرك وأتوب إليك.

انتهى اللقاء بفضل الله..